# الباب الثاني

# أبو القاسم الشابي وشعره

## الفصل الأول

## لمحة عن أبي القاسم الشابي

### أ. مولده ونشأته

ولد أبو القاسم في 24 شباط فبراير من سنة 1909 م، في بلدة الشابّة، وهي من ضواحي توزن.[1]

نشأ أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن إبراهيم الشابي، بشابية توزر، من الجنوب التونسي. وكان أبوه محمد الشابي قد فقل من مصر مجازاً من الأزهار، حيث درس على الشيخ محمد عبده المشهور وإنّا لا نعلم متى رجع بالضبط، وإنما كل ما أتيح لنا تحقيقه، هو أنه رجع ليتولىّ خطة القضاء ببعض جهات البلاد التونسية; وأن أول تسمية رسيمة اطلعنا عليها هي تسمية «بسليانة» ولقد صدر له الأمر بتاريخ 11 ربيع الأول (1328) المواقف (22

[1] الأستاذ أحمد حسن بسج، *ديوان أبي القاسم الشابي*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 5.

مـــارس / آذاء 1910) أي بعـــد ولادة أبـــي القاســم الـشابي بـسنة تقريبـاً. ومـن هنـا كانـت نـشأة شـاعرنا فـي ظـلّ أبيـه، الـذي عـيّن قاضـياً بقفـصة فـي 21 رمـضان (1329 هـــ) المواقـف 14 ســبتمبر / أيلـول (1911) ومــن فقــصة ينتقــل فــي 15 صــفر (1332 هـــ) المواقـف (12 جـانفيي / كـانون الثـاني (1914) إلــى قــابس. ومــن قــابس ينتقــل بتــسمية جديــدة مؤرّخــة فــي 22 رجــب (1335 هـــــ) المواقــف (14 مــايو / أيــار 1917) إلـى جبـال تالـة. ثـم تـأتي تـسمية أخــرى بتــاريخ 17 ربيــع الأول (1337 هـــــ) المواقـــف (21 ديـــسمبر / كـــانون الأول 1918) فيــر تحــل الــشيخ القاضــي إلــى مجاز الباب.[2]

ب. **دراسته**

تلقـى أبـو القاسـم دروسـه الأول علـى يـد والـده بالدرجـة الأولـى، ثـم أرسـله إلـى الكتّـاب فــي بلــدة قــابس، وفــي الثانيــة

[2] الدكتور عبد المجيد الحرّ، *أبو القاسم الشابي: كوكب السحر*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 62.

عشرة من عمره، قدم إلى العاصمة سنة 1339 هـ / 1920 م، حيث التحق بجامع الزيتونة للدراسة، حيث تهيّات له الفرصة الحقيقة من أجل التحصيل العلمي وخصوصاً العلوم الدينية، فقضى سبع سنوات يدرس ويطالع، ويخالط المثقفين وأهل العلم، ولكنّه كان لا يخفي تبرُّمه وتضجّره من إقامته في مكان لا تلقى فيه أفكاره القبول والرضا. ومع ذلك فقد «كوّن لنفسه ثقافة واسعة عربية بحتة، جمعت بين التراث العربي في أزهى عصوره، وبين روائع الأدب الحديث بمصر والعراق وسوريا والمهجر، ولم يكن يعرف لغة أجنبية»، إلا أنه اطلع على آداب الغرب من خلال ما كانت تنشره الدور العربية من تلك الآداب والحضارات.

وفي سنة 1927 م وفي شهر يونيو / حزيران نال الشابي شهادة التطويع حيث أنهى دروسه في جامع الزيتونة. وفي العام التالي 1928 م انتسب إلى

المدرسة التونسية للحقوق ونال إجازتها سنة 1930 م.[3]

ج. **مجالسه**

من خلال ما مر معنا في نشأة الشابي، ومن خلال ما حدثنا به عنه أصدقاؤه والمعجبون به، نميل إلى الاعتقاد، بأنّ شاعرنا كان رجلاً ناضجاً رغم صغر سنه؛ وأنه قد عرف الحياة وبلاها، وتجدث عنها وهو يعرف ما هي؛ وخاصةً في أُخريات أيامه المليئة بالتأمّل والفهم والتذوّق. ومن ذلك يبدو لنا، أن الشابي في مجالسه، كان يعبر عن فهمه للحياة فهماً نزع فيه منزع العمق، والذهاب مباشرةً إلى اللب والصميم منها، بفضل إحساس الصادق وروحه النيرة. وبذلك لم يكن الشبي في حاجة إلى قضاء السنين الطويلة في التجارب والفشل – أحياناً – ليصل في النهاية إلى الإحاطة بجوهر المجالس في حياته، أو بشيء منه. والمجالس في حياة الشابي، مجالس وجودية؛ وهو نضج من خلالها في حقبة زمنية، تتراوح بين عشريين وخمسةٍ وعشريين عاماً؛

[3] الأستاذ أحمد حسن بسج، *ديوان أبي القاسم الشابي*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 6-5.

وأدرك أن صميم الحياة يناديه؛ فأصاخ وهو ابن هذا العمر السخيّ القصير إلى الآخرين يسمعهم – وهو يحدثهم – ومن ثم يجيبهم بما يزخر به قلبه، من ثروةٍ هائلة تفيض بإيمان مطلق بسنن الحياة وقوانينها. وكان أهل مجلسه، يرون لسانه يلهج بنارٍ متأججة من الشوق إلى الحياة؛ وحب اعتناقها، وهي في أكرم صورها وأخلص عناصرها المجرّدة من شوائب القشور، ومبتسر التجارب الخائبة. وقد جاهر بعض محدثيه في جلسةٍ مفعمةٍ بالصراحة المتناهية حول ما يعتقد ويعتقدون فقال يخاطبهم «سلكت إلى فهم الحياة، طريق الشعور الملهم الذي يتجاوز الأشكال العقلية، ومنطقها الجامد وهو محمول على أجنحةٍ من النور. أمّا أنتم فسلكتموها تمشون على الأرجل، في طريق المنطق والعقل، المليئة بالجفر والمنعرجات، والحيل البليدة، فتضيعون العمر في البحث والنظر، أو تضيعون العقل الذي أسلمتم له القيادة، فلا نكاد نصل معه إلى شيء من جوهر الحياة، إلاّ قبل أن نودّع الدنيا بربع ساعة...»

ويـتكلم عنـه الأسـتاذ إبـراهيم أبـو رقعـة فــي مجالــسه فيقــول: «وقــد حــدثني أبــو القاســم عــن نفــسه أن الطــور الأول الــذي قطعــه مــن حياتــه الفكريــة، هــو التنــسك والانقطــاع إلــى العبــادة .. وأنــه يقــضي اليـوم واليـومين لا يخـرج مـن معبـده؛ وربمـا مكـث الـزمن الطويـل بـدون طعـام أو شـراب تعـذيباً للـنفس، وكرهـاً لهاتـه الـدار. وكـان يؤمــل أن يأتيــه فــي وحدتــه طــائفٌ يخبــره بالغيــب، ويبــشره برتبــة القطــب أو الغــوث (لست أدري)».[4]

ومـن تلـك المجـالس التـي تـذكر لأبـي القاســم مــع أصــدقائه والمقــرّبين إليــه, نقتطــف مــا يتــسع لهــا مجــال الــذكر, ونجعلها في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

تلــك التــي دخــل فيهــا والــده جــامع الأزهـر, وتخـرّج منهـا قاضـياً شـرعياً, يـدرس مـذاهب المتـصوّفة التـي حفظهـا عـن كتـاب الاحيــاء للغزالــي؛ حيــث أثــر تــأثيراً محـسوساً فـي نفـس أبـي القاسـم, الـذس فــتح عينيــه علــى مجلــس أبٍ يخاطبــه مخاطتـة العابـد المتنـسّك, يـبغض الـدنيا ولا

[4] الدكتور عبد المجيد الحرّ، *أبو القاسم الشابي؛ كوكب السحر*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 67-69.

يحفل بها، ولا تساوي في نظره جناح بعوضة.

والمرحلة الثانية:

هي مرحلة التخفّي عن أعين أبيه، في أدبه وشعره الخارج عن روح المحافظة على القديم. وفي هذه المرحلة تحدّث عنه رفاقه في مجالسهم؛ فذكروا أنهم كانوا يرونه, وقد أثقل جيوبه بالتحارير من أشعار وقصص. وكان يطلعهم على أفكاره ونظرته ألى الحياة. وذكروا أنهم كانوا يزورونه في منزله القائم داخل مدرسة جامع الزيتونية فيطلعهم على التحارير والأوراق التي تشغل مكاناً خفياً من البيت. وكانوا يسألونه عن سبب إخفائها, فيجيبهم بأنّ والده وضع رقيباً عليه, يمنعه من إضاعة وقت دراسة بنظم الشعر, والاطلاع على أدب الغرب؛ ولهذا فهو يخفي هذه الأوراق عن الأنظار, خشية وقوف المكلّف بمراقبته في التعليم من طرف والده عليها. إذ كثيرا ما عثر له على تقييدات أدبية، فأشبعه لوماً وتعنيفاً, وربما رفع الأمر إلى والده, فتأتي رسائله مملوءة بالتهديد والوعيد. وفي هذا المجال يقول إبراهيم أبو رقعة ما نصّه: «... وقد وجدتُ

وقتئـذٍ نثـر أبـي القاسـم أكثـر مـن شـعره. ووجـدت صـدره ضـيقاً حرجـاً بأدبياتـه، لـيس لـه قـرين يبادلـه القـول, أو يناقـشه النظـر. ولا يوجـد حولـه إلاّ الرقبـاء والأعـين؛ حتـى إذا رأوا بيـده ورقـة أدبيـة مزقوهـا، أو كتابـاً أدبيـاً أتلفـوه. وكانـت تلـك الـساعة التـي اجتمعـت معـه فيهـا, مـن أفـسح الـساعات وأطيبهـا. وقـد سـألته لمـاذا لا تنـشر الـبعض مـن هـذا النثـر والـشعر بالجرائـد الـسيّارة, والحـال أنـه بلـغ حـدّ الكمـال, فوجـدت الفتـى مرتابـاً فـي نـضوج تحريراتـه, ويخـشى مـن الفكـر العـام أن يقابلـه بـالهزء والـسخرية, كمـا أنّـه يخـشى غـضب والـده, وغـضب المتعهّـد برعايتـه. ولـم أخـرج مـن بيتـه, حتـى تـسلّمت منـه قطعـةً شـعريةً رائعـة, وسـلمتها إلـى الـسيد حـسين الجزيـري, صاحب جريـدة النـديم؛ وقـد حـان وقتئـذٍ بـروز عـدده الممتـاز, فنـشرها تحـت عنـوان شـاعر الوجـدان أبـو القاسـم الـشابي، فكـان شـكراً وثنـاءً وتنـشيطاً مـن عمـوم الأدباء، ولوم وتعنيف ممن تعلمون».

والمرحلة الثالثة:

هـي مرحلـة نـضوج مجالـسه, بعـد اطلاعـه علـى قـصائد شـعراء الحداثـة، ومـنهم جبـران خليـل جبـران, وغيـره مـن

كتاب المهجر، ووجد في نفسه راحةً إلى نثرهم وشعرهم لأن شعر ونثر هؤلاء عليه المسحة الصوفية، وذلك لبعده عن الماديات وتعلّقه بسر الوجود والحياة. وأصبح أبو القاسم ينطق في مجالسه باللسان الذي ينطق به جبران، وعنون كتائبه وأشعاره بمثل العناوين التي عنون بها جبران كتائبه وأشعاره.

طوّر أبي القاسم الثالث من مجالسه الفكرية في شعره، هو طور النضوج والاستقلال في الرأي والتفكير, والاختراع في الأدب والابتكار. وكان يحدث جلساءه عمّا طالعه من آلاف مجلدات كتب الأقدمين, وكل ما وصلت إليه يده من كتب المتأخرين وقد زادت شهرة أبي القاسم, في المرحلة الثالثة من مجالسه، حين سامر بالخلدونية بطلبٍ من النادي الأدبي بتونس؛ مسامرته الشهيرة التي سماها «الخيال الشعري عند العرب» فقد كان لها دويٌ في الأوساط الأدبية.

زفي إحدى جلساته بين أدباء وشعراء عصره, صرّح لجلسائه قوله – الذي لخصه في رسالة بعثها لصديقه محمد الحليوي – بأنه في بيئته الثقافية،

يشعر شعوراً عميقاً بالضياع, بين جامدين, قد احتلوا مكاناً في الأدب «يجب أن يحتله الأحياء الذين يعرفون كيف ينفخون في الشعب روح الحياة؛ والذين يعرفون كيف يعلمونه محبة الحق والقوة الجمال».

ويذكر عنه من اختلف إلى مجالسه، أنه يتكلم إلى محدثه بعينين تنظران إلى الوجود نظرة الناقم الهازىء الساخر من الحياة. وكان يشعر بالغربة, لأن لا جظ أن بيئته الثقافية التقليدية, مختلفة – زمنئذٍ – عن التيارات الفكرية والأدبية التجديدية في المشرق خصوصاً, وفي العالم عموماً. وفي واحدة من جلسات الأدب العامرة, نادى به رفاقه المخلصون زعيماً للحركة الأدبية الجديدة في بلاده. بيد أن دعاة التقليد، تصدّوا له, ورفضوا بيانه الأدبي الذي جهر به سنة (1929) في مسامرته «الخيال الشعري عند العرب». وكان الزعيم السياسي محمد محيي الدين القليبي، أحد الناطقين بلسانهم. وفي تلك الجلسة التفت الشاعر حوله يبحث عن أدباء، تتدفق في دمائهم عزمات الفتوة, ونخوة الشباب ونشوة

الأحـــلام؛ فوجـــد قلـــةً قليلـــةً معجبـــةً بعبقريتـــه, معترفـــة بزيادتـــه الأدبيـــة فـــي تـــونس، مؤمنـــة مثلـــه بوجـــوب خلـــق الأدب التونـــسي الجـــدير بـــالخلود. وكـــان محمـــد الحليـــوي أحـــد أولئـــك الأنـــصار – الـــذي كـــان يجالـــسه فـــي رســـائله الدائمـــة – فكتـــب إلـــى أبـــي القاســـم يـــوم 22 فيفريـــي/ شـــباط (1930) اعترافـــاً بزعامتـــه هـــذا نـــصه: «لا شـــك أنـــك ســـتتولى زعامـــة التجديـــد الأدبـــي فـــي تـــونس، ونكـــون نحـــن تحـــت لوائـــك تلـــك هـــي بعـــض مجـــالس أبـــي القاســـم, التـــي اعتـــرف معاصـــروه بأهميتهـــا, وقـــالوا عنـــه فيهـــا: «غيـــر أن المجـــددين قـــصروا عـــن بلـــوغ مـــستوى المـــسؤولية الأدبيـــة الجديـــدة التـــي تحملها الشابي».[5]

## د. نشاطه الأدبي

ذكرنـــا أن الـــشابي جمـــع ثقافـــة واســـعة عربيـــة مـــن جهـــة، وغربيـــة عـــن طريقـــة مـــا قـــرأه مـــن ترجمـــات ونقـــول عـــن الآداب الغربيـــة، لـــذلك تفتحـــت قرائحـــه الـــشعرية فـــي ســـن مبكـــرة فـــي حـــدود الثانيـــة عـــشرة مـــن عمـــره ومما يـــروى فـــي ذلـــك أن قـــصيدة

[5] الدكتور عبد المجيد الحرّ، *أبو القاسم الشابي؛ كوكب السحر*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 69-72.

«يا حب» التي نظمها سنة 1923 م كانت من أوائل شعره. وكتب في الصفحة الأدبية لجريدة النهضة، كل اثنين، سنة 1942 هـ / 1926 م. وظهر شعره مطبوعاً ضمن كتاب «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر»، سنة 1344 هـ / 1927 م. وفي السنة ذاتها ألقى محاضرة في نادي قدماء الصادقية عنوانها: «الخيال الشعري عند العرب»، كانت مادة الكتاب الذي حمل العنوان نفسه فيها بعد.[6]

ه. **صفاته**

لا بأس من ذكر صفاته الجسدية، إلى جانب صفاته الروحية والنفسية والخلقية، التي وصفها أقرب الناس إليه التصاقاً؛ بدءاً بأشقائه، وانتهاءً بالأدباء والشعراء الذين عاصرهم، وعرفوه عن قربٍ حق المعرفة خلقاً وخلقاً. ويقول شقيقه محمد أمين الشابي في كتاب «ديوان. أبو القاسم الشابي» ما نصّه في وصف أبي القاسم «نحيف الجسم، مديد

[6] الأستاذ أحمد حسن بسج، *ديوان أبي القاسم الشابي*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 6.

القامــة، قــويّ البديهــة، ســريع الانفعــال، حـادّ الـذهن، تكفكـف رقـة طبعـه مـن عـرب عاطفتـــه وحـــدة ذهنـــه. يـــراه أصـــدقاؤه بـــشوشاً، كريمـــاً، وديعـــاً، متأنّقـــاً، طروبـــاً لمجالس الأدب، يحب الفكاهة الأدبية.[7]

## و. مرضه وزواجه

أصـيب أبـو القاسـم بـداء تـضخم القلـب، فـي الـسنة التـي فقـد فيهـا والـده، وكـان فـي الثانيـة والعـشرين مـن عمـره، وقـد نهـاه الأطبـاء عـن بـذل أي جهـد فكـري أو جـسدي ومـع ذلـك يتوقـف عـن عملـه شـعراً ونثراً، مما زاد في خطورة وضعه.

أمـا زواجـه، فإنـه، وبنـاء علـى رغبـة والـده، وبعـد استـشارة الطبيـب أقـدم علـى الـزواج ســنة 1929 م، قبيــل وفــاة والــده بقليــل، ولكــن حالتــه بعــد الــزواج لــم تتحـسن، بـل علـى العكـس ازدادت سـوءا خـصوصاً وأنـه كـان يُرهـق نفـسه أكثـر ممـا يطيـق قلبـه المتعـب، فتكـاثرت بعـد سـنة 1930 م النوبـات القلبيـة الحـادة، ومـع أنّ عـدة أطبـاء أشـرفوا علـى معالجتـه، ومنـه الطبيـب الفرنـسي «كـالو»، فلـم يـسفر كـل

[7] الدكتور عبد المجيد الحرّ، *أبو القاسم الشابي: كوكب السحر*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 64-65.

ذلك عن أي فائدة تُذكر، علماً أنه أخذ بنصائحهم بعد ذلك في قضاء الوقت في المصايف والمنتجعات سنة 1932 م، وكان رزق بولده البكر. وفي سنة 1933 م، اضطر بعد اشتداد المرض أن يلازم الفراش ويمتنع عن الكتابة والقراءة، ثم انتقل إلى مكان يُدعى «حامة توزر» حيث يوجد فيها عين ماء حار يستشفى بها من بعض الأراض.[8]

ز. **وفاته**

اشتد عليه المرض سنة 1934 م، فتوجه إلى تونس العاصمة فنزل في المستشفى الإيطالي في 26 أغسطس آب بقي فيها حتى توفي سحر يوم 9 تشرين الأول – اكتوبر 1934 م، ونقل جثمانه إلى بلده توزر حيث دفن فيها.[9]

## الفصل الثاني

## لمحة عن شعر أبي القاسم الشابي

أ. **آثاره**

[8] الأستاذ أحمد حسن بسج، *ديوان أبي القاسم الشابي*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 7.

[9] نفس المرجع، ص: 7.

رغم السن الصغيرة القصيرة العمر، التي عاشها أبو القاسم الشابي، تسنىّ له بجهده العلمي، وذكائه، وإرادته على التحصيل منذ نعومة أظفاره، أن يغني المكتبة العربية بمؤلفاتٍ يمكن تلخيصها بما يلي:[10]

1. قصة الهجرة النبوية، وقد نشرتها مجلة العالم في تونس.
2. «في المقبرة» وهي رواية.
3. «السكير» وهي مسرحية.
4. مجموعة رسائل، توجّه بها إلى أصدقائه ومنهم: البشروش، والحليوي، وأبو شادي، وإبراهيم ناجي وعلي ناصر، وآخرون.
5. «مذكرات» بدأ بتدوينها سنة 1930.
6. الأدب العربي في العصر الحاضر، وهي دراسة أدبية قصيرة قدّم بها ديوان «الينبوع» للشاعر أبي شادي.

[10] الدكتور عبد المجيد الحرّ، *أبو القاسم الشابي: كوكب السحر*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 77.

7. «شـــعراء المغـــرب»، دراســـة أعـــدها ليلقيهـا فـي النـادي الأدبـي، ولـم يلقهـا فتركت مخطوطة.

8. «جميل بثينة» وقصص أخرى.

9. «صفحات دامية».

10. مقالات مختلفة.[11]

ب. **ديوانه**

جمـــع الـــشابي ديوانـــه فـــي صـــيف 1934 م وســماه «أغـاني الحيـاة» وقـد رتّبـه بنفـــسه، واختـــار مـــا يريـــد مـــن القـــصائد وأهمـــل الـــبعض الآخـــر، وكـــان يعـــدُّه بـــذلك للطبـــع، ولكـــن المـــوت منعـــه مـــن ذلـــك، فتـولى أخـوه محمـد الأمـين الـشابي تلـك المهمـــة فنـــشر الـــديوان بإشـــراف أحمـــد زكـــي أبـــو شـــادي ســـنة 1954 م. وتميّـزت تلـك الطبعـة بأنهـا التزمـت الترتيـب الـذي كـان ارتـضاه الـشاعر نفـسه لقـصائده، فلـم يطـرأ أي تعـديل علـى الـديوان، إلا بإضـافة بعـض قـصائد لـم يثبتهـا الـشاعر. وهـي: «نظـــرة فـــي الحيـــاة»، «أنـــشودة الرعـــد»،

[11] الأستاذ أحمد حسن بسج، *ديوان أبي القاسم الشابي*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 8.

«فــي الظــلام»، «أيهــا الليــل»، «شــعري»، «أيهــا الحــب»، «أغنيــة الأحــزان»، «جــدول الحب».

فــي ديــوان أبــي القاســم الــشابي الــذي رتبــه وجمعــه الأســتاذ أحمــد حــسن بــسج أشــعار فيهــا القــوافي المختلفــة وأحــدها قافيــة البــاء. وفيــه هــذه القافيــة الباء مواضع ما يلي:

1. يا شعر
2. نشيد الأسى
3. في سكون الليل
4. الكآبة المجهولة
5. السَّآمة
6. قبضة من ضباب
7. من حديث الشيوخ
8. أيُّها الليل
9. فلسفة الثعبان المقدّس
10. الدنيا الميتة

11. صوت من السَّماء
12. للتاريخ
13. وعود الغواني
14. ليلة عند الحبيب

هذا شعر "فلسفة الثعبان المقدس":

**فلسفة الثعبان المقدّس**

كـان الرَّبيعُ الحيُّ روحاً, غـضَّ الشَّبـابِ, مُعَطَّرَ الجلبـابِ حالمـاً

يَمْشـي على الدّنيا, بفكرةِ ويطـوفُـهَا, في موكبٍ خَـلاَّبِ شَاعـرِ

والأفْـقُ يمـلُأهُ الحَنـانُ, قَلْـبُ الوجـودِ المنتجِ الوهَّـابِ كـأنَّهُ

والكـونُ مِنْ طُهْرِ الحياةِ هوَ معبـدٌ, والغـابُ كأنّـما كالمحـرابِ

والشّـاعرُ الشَّحْرورُ يَرْقُصُ, للشَّمسِ, فوقَ الوردِ مُنشـدًا والأعشـابِ

شعْرَ السَّعـادة والسَّـلامِ, سَكْـرَى بسِحْر العـالمَ ونفسـهُ الخـلاّبِ

ورآه ثعبـانُ الجـبـال, ما فيه من مَرَحٍ, وفيْضِ فـغمّـه شبـابِ

وانقضّ, مضْطَغِناً عليه, سَوْطُ القضاءِ, ولعنةُ الأربابِ كأنَّه

بُغِتَ الشَّقيُّ, فَصَاح في متلفِّتاً للصِّائل المنْتَابِ هول القضا

وتَدَفَّق المسكينُ يصرخُ ثائرًا: «ماذا جنيتُ أنا فَحُقَّ عِقابي؟»

«لا شيءَ, إلاَّ أنَّني بالكائناتِ, مغرّدٌ في متعزّلٌ غابي»

«أَلْقَى من الدّنيا حناناً وأبُثُّها نَجْوَى المحبِّ طاهرًا الصّابي»

«أيُعَدُّ هذا في الوجود أينَ العدالةُ يا رفاقَ جريمةً؟! شبابي؟»

«لا (أين)؟, فالشَّرْعُ رأيُ القويِّ, وفكرةُ المقدّسُ ههنا الغَلاّبِ!»

«وَسَعادةُ الضَّعفاءِ جُرْمٌ.., عند القويِّ سوى أشدِّ مالَهُ عِقَابِ!»

«وَلْتَشْهَدِ الدُّنيا التي حُلْمَ الشَّبابِ, وَرَوعةَ عنَّيْتُهَا الإعجابِ»

«أنَّ السَّلاَم حَقِيقةٌ, والعَدْلَ فَلْسَفَةٌ اللّهيبِ مَكْذُوبةٌ الخابي»

«لا عَدْلَ, إلا إنْ تَعَادَلَتِ وتَصَادَمَ الإرهابُ

القـوَى بالإرهـابِ»

فَتَبَسَّمَ الثُّعبـانُ بَسْمـةَ هـازىءٍ وأجابَ في سَمْتٍ, وفَـرْطِ كِذَابِ:

«يا أيُّهـا الغِـرُّ المثرثِـرُ, إنَّنـي أرثِـي لـثورةِ جِهْلـكَ التـلاّبِ»

«والـغرُّ يعذره الحكيمُ إذا طغـى جهلُ الصِّبـا فـي قلبـه الوثّـابِ»

«فاكبحْ عواطفكَ الجـوامحَ, إنّهـا شَـرَدَتْ بلُبِّكَ, واستمـعْ لخطابـي»

«إني إلـهٌ, طَالَمـا عَبَـد الـورى ظلّي, وخافـوا لعنَتـي وعقابـي»

«وتقدّموا لـي بالضَّحايـا فَرحيـنَ, شـأنَ العَـابدِ منهُـمُ الأوّابِ»

«وَسَعَـادةُ النَّفـسِ التَّقيَّـة أنّهـا يومًا تكـونُ ضحيَّـةَ الأربـابِ»

«فتصيرُ في رُوحِ الألوهـة قُدُسِيَّـةً, خَلُصَتْ منَ بضعـةً, الأوشـابِ»

«أفَلاَ يَسرُّكَ أن تكـونَ ضحيَّتـي فتحُلَّ في لحمي وفـي أعصابـي»

«وتكونَ عزماً في دمي, وتوهُّجـاً فـي نَاظِريَّ, وحدّةً فـي نابـي»

«وتذوبَ في رُوحِي التي لا تنتهـي وتصيرَ بعضَ ألوهتي وشَبابـي..؟»

«إنِّـي أرَدْتُ لـكَ الخلودَ مؤلّهـاً في روحي الباقي على الأحقابِ..»

«فكِّرْ, لِتُـدْرِكَ مـا أريـدُ, وإنَّـه أسمي من العيش القَصيـر النَّابـي»

«فأجابه الشُّحرورُ, في غُصَصِ الرَّدَى والموتُ يخنقـه: «إليكَ جوابـي»:

«لا رأى للحقِّ الضِّعيفِ, ولاصـدىً والـرّأيُ, رأيُ القَاهـر الغـلاّبِ»

«فافعلْ مشيئَتـكَ التـي قد شئتَهـا وارحمْ جلالكَ من سماع خطابـي»

وكـذاك تتخـذ المظالـم منطقـا عدبـا لـتخفـي سـوءه الأرابِ

## ج. شعره وأغراضه

ليـــست العمليـــة الـــشعرية عنـــد الـشابي عمليـة مقـصودة لـذاتها، بـل هـي وســـيلة مـــن الوســـائل التـــي يمكـــن أن تـساهم فـي إيـصال مبادئـه الثوريـة إلـى مجتمعـه، فهـو يريـد لأمتـه أن تهـب مـن رقـدتها، يريـد أن يـشهد نهايـة الظلـم فـي

بـلاده، فكـان يتغنـى بالحيـاة وبجمالهـا مـن أجـل ترغيـب الآخـرين فـي أن يتوجهـوا إلـى ذواتهـم أولاً فيـصلحون مـن أنفـسهم، ثـم يتـأملون الطبيعـة التـي يلفـت أنظـارهم إلـى جمالاتهـا، ليـدركوا أهميـة الحيـاة وبالتـالي أهميـة الحريـة. وبالمقـدار الـذي يتحـرّق فيـه الـشاعر ويتـألم مـن أجـل الآخـرين، رأينـا أن الاسـتجابة لدعواتـه لـم تكـن بـالحجم الـذي أراده، مـن هنـا كانـت ردود الفعـل عنـده عنيفـة أحيانـاً فينهـال علـى الجـاملين والكـسالى بـالتقريع، وينـصرف عـنهم متوجهـاً إلـى الطبيعـة بكليتـه، متـأثراً بـالرومنطيقين، لعلـه يجـد راحـة لنفـسه المتمـرِّدة، ففـي الغـاب الـذي توجـه إليـه، عـودة إلـى الفِطـرة، وعـالم الغـاب بـالمفهوم الرومنطيقـي عـالم خيـالي عـاطفي، والحـديث عنـه يـدل علـى إحـساس الـشاعر بالغربـة، وهـو بـين أهلـه وقومـه، هـذا الإحـساس، يتطـور مـع مـرور الـزمن إلـى ملـل ويـأس واشـمئزاز مـن الـذين ينمـسكون بـأعراف باليـة لا يقرهـا عقـل ولا تتوافـق مـع الـدين. إذا، جعـل الـشابي مـن الـشعر منطلقـا ليعبّـر عـن ذاتـه ومـا يعـتلج فيهـا مـن همـوم، سـواء مـا يـدور منهـا حـول هذه الذات، أو ما يتعلق بالآخرين.

أمـا طريقتـه فـي الـنظم، فإنهـا تقـوم علـى أسـس ومنطلقـات، تراعـي بمجملهـا أمـرين همـا: عمـق المعـاني، وسـهولة الألفـاظ. فالمعـاني تـرتبط بالإنـسان وبالحيـاة، وبالـشعور. والألفـاظ سـهلة، ليّنـة، فيهـا قـوة وقـدرة علـى حمـل المعـاني المختلفـة بحيـث تـأتي مُـشعَّة، تتـداخل مـن خلالهـا المحـسوسات، ممـا يقـرِّب العبـارة إلـى الرمزيـة لمـا يكتنفهـا مـن غمـوض أو خيـال عميـق، وقـد أشـبَه فـي ذلـك جبـران خليـل جبـران. وكمـا اهـتم باللفظـة المفـردة وبـالمعنى العميـق، فقـد جـاء بـأوزان شـعرية رشـيقة تـتلاءم مـع الإيقاعـات الموسـيقية التـي تـوخّى الـشاعر أن يقـدم معانيـه عبرهـا، وهـي موسـيقى انـسيابية تدغـدغ مـشاعر الإنـسان الفـرد، فتطربـه حينًـا، وتثيـره حينًـا آخـر فتلهـب أحاسيـسه، أو أنـه يحـس بـالانفلات والتحلـل مـن كـل قيـد! لـذلك، نجـد أنـه يكثـر مـن اسـتعمال بحـر الرمـل، والمتقـارب، ومجـزوء الكامـل، والمنـسرح والخفيـف، وكلهـا أوزان تخـدم أغـراض الـشاعر وتـتلاءم مـع طبيعـة شـعره، فـي التعبير عن موضوعاته التي أشرنا إليها.[12]

[12] الأستاذ أحمد حسن بسج، *ديوان أبي القاسم الشابي*. (بيروت: دار الكتب العلمية. 1995 م). ص: 8-9.